قسم اللغة والأدب العربي.
المقياس: البلاغة والحجاج، السنة الأولى ماستر لسانيات عربية، مج 02.

المحاضرة رقم07 :

الحِجَاج البلاغي في التداولية

لا يغيب على الناظر إلى تاريخ البلاغة، منذ نشأتها، صلتها بالحجاج حيث كانت العلاقة بينهما علاقة تكامل مميّز ومعقّد التفت إليه القدامى قبل المحدثين وعلى وجه الخصوص فلاسفة اليونان بداية من أرسطو الذي حدّها على النّحو الآتي: « الكشف عن الطرق المُمكنة للإقناع في أي موضوع كان»[1].

لقد بعث المحدثون الإشكالية بناء على انتهى إليهم من أفكار حيث حصل الإجماع حول فكرة أنّ القدامى لم يخطئوا حين جمعوا بين البلاغة والعناصر العقليّة للحِجَاج بمكوّناته الوجدانيّة والفنية إذ « لم يكن لهذا الارتباط أن ينشأ لولا أنّ البلاغة في أصلها نشأت في أحضان الخطابة، وما تتميّز به من مراعاة مقام المتخاطبين ومحاولة التّأثير فيهم بأساليب لغويّة وتقنيات استدلاليّة تدفعهم إلى الإقتناع بكلام الخطيب[2]».

يسهل الحديث عن اندماج الحِجَاج مع البلاغة في كثير من الأساليب، ولمّا كان المحتمل هو مجال الحِجَاج فقد كان حرّي بالخطاب الحِجَاجِي أن يعضُد طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغيّة والبيانيّة الّتي تُظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس. فلقد عُزلت هذه الأساليب البلاغيّة عن سياقها البلاغي ليؤدّي وظيفة جماليّة كما هو مطلوب في سياق البلاغة دون أن تتجاوزها إلى الوظيفة الإقناعيّة الاستدلاليّة التي يقتضيها الحِجَاج .

إنّ محسنًا بلاغياً لهو حجاجي إذا كان استعماله يؤدّي دوره في تغيير زاوية النّظر، فإذا لم ينتج عن الخطاب استمالة المخاطب، فإنّ المحسن سيتمّ إدراكه باعتباره زخرفة؛ أي باعتباره محسن أسلوب، ويعود ذلك إلى تقصيره عن أداء دور الإقناع[3].

تظهر آثار البلاغة حين تقنع المخاطب من خلال المجاز على سبيل المثال ، حيث يقول طه عبد الرحمن في هذا الصدد « لا كلام بغير خطاب، ولا خطاب بغير حجاج [...]

1 رضوان الرقبي، الاستدلال الحِجَاجِي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، الحجاج، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر، ديسمبر، 2011، الكويت، ص 82.
2 حبيب أعراب، الاستدلال الحِجَاجِي ،عناصر استقصاء نظري، مجلة عالم الفكر، المرجع السابق، ص105.
3 صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، دمشق، ط1، 2008، ص 51. بتصرف كبير.

ولا حجاج بغير مجاز، فالمجاز أسلوب من أساليب المحاجة » ويضيف أيضا: « إنّ حقيقة الحِجَاج ليست هي مجرّد الدّخول في علاقة استدلاليّة، وإنّما الدّخول فيها على مقتضى المجاز، بمعنى أنّ الّذي يحدّد ماهية الحِجَاج هو العلاقة المجازيّة وليس العلاقة الاستدلاليّة وحدها فلا حجاج بغير مجاز»[1].

كما تُعدّ الاستعارة أكثر الصّور توظيفاً في الخطاب الحِجَاجِي بغية الإقناع حتّى عدّها الدّارسون أبلغ وجوه تقييد اللّغة بمقام الكلام.

وحاصل القول مما سلف، أنّ العلاقة بين البلاغة والحجاج علاقة استلزاميّة حيث ظلّت البلاغة الأسلوب الأمثل للخطاب منذ عهد اليونان، حين عول عليها لتحصيل الإقناع .

1. علاقة الحِجَاج بالتّداوليّة :

رَكَن بعض المفكرين في عصرنا إلى القول إنّ اللّسانيّات التّداوليّة بوصفها علمًا حديثًا هي في الحقيقة مصطلح جديد يطلق على مسلك قديم في التّفكير اللغوي، يرجع إلى الفيلسوف سقراط، على أقل تقدير ، ثم تبعه أرسطو والرّواقيون من بعده، إذ تشكّل التّداولية التي نهلت من التّفكير الفلسفي في اللّغة درسًا غزيرًا لم يقف بعدُ عند حدودٍ واضحة.

أما بخصوص صِلة الحِجَاج بالتّداوليّة، فيبرز تساؤل أساسي حول مناط المقاربة الحِجَاجِيّة (L'approche argumentative) وأساسها فهل نلتمسه في اللّسانيّات أو البلاغة أو الأسلوبيّة؟ نظرًا إلى أنّه يعدّ في ذاته بناء لا يتجسّد إلاّ من خلال هذه المستويات الثّلاثة بصفة أساسيّة[2].

ينظر التّداوليون المعاصرون إلى الخطاب الحجاجي، على أنّه متميّز بخصائص تواصليّة بنيوية تجعله جنس مختلف عن غيره من الخطابات : السرديّة والوصفية والإخباريّة، كما أنّ صوره البنائيّة، الاستدلاليّة ، وخضوعه لشروط التلقّي والمقام والرّغبة في التّأثير وتوجيه الفعل، تكرس كلُّها ذلك التميّز من جهة، وتدعم من جهة ثانية انتماء القول والنصّ الحِجَاجِي إلى مجال التّداوليّات على الرّغم من اتّساع هذا المجال منهجيًّا، إلاّ أنّ من أولويّاته تقديم أجوبة سديدة عن أسئلة حجاجيّة عِدّة ، مثل: من يتكلّم ؟ وإلى من يتكلّم؟ وماذا نقول بالضّبط حين نتكلّم؟[3].

لقد سعت التّداوليّة إلى معالجة الحِجَاج بوصفه فعلاً تداوليّا لا يتعذر تفسيره دون إبراز مراتب المتكلّمين وأدوارهم في أفعال نظريّة الكلام وأهميّة السّيّاق التّخاطبي، كما

1 طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أوالتكوثر العقلي، المرجع السابق، ص 213.
2 ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحِجَاج في البلاغة المعاصرة، المرجع السابق، ص 176. بتصرف
3 ينظر: المرجع نفسة،ص176. بتصرف.

حاولت التّداوليّة أن تفسر دور الرّوابط الحجاجيّة، بوصفها أدوات تُسهم في تحقيق العلاقة الخطابيّة بين المتكلّمين،كما اهتمّت بالسّلالم الحِجَاجِيّة في صلب الأقوال، لذلك اتّخذ التّحليل التّداولي للحِجَاج من النّصوص وكيفيّة إنتاجها موضوعه المحوري. حيث يسعى هذا التّحليل إلى كشف وتحديد قواعد النّصوص الحِجَاجِيّة ومعاييرها[1].

وعليه فقد تجسّدت أهم المباحث التداوليّة في الحِجَاج في أشكال عديدة نذكر منها:

2. **أفعال الكلام ودورها الحجاجي**: (نظرية أفعال الكلام العامّة)

تعتبر هذه النّظريّة التي قدّمها الفيلسوف أوستين، من أهمّ المحاور التّداوليّة المعاصرة، حيث أعطى صاحبها اللّغة وأفعالها الكلاميّة مكانة كبيرة في صنع الأحداث ونقل المعنيّين من مستوى التلقّي، إلى مسرح الفعل والتّجسيد إذ تكتسي هذه الأفعال قيمتها حين يوظفها أصحاب الكفاءات والمحاججة والإبانة.

يطلق أوستين مصطلح إخباري، للدلالة على النّوع الأوّل من القضايا في مقابل (أدائي) ليعبّر عن تلك القضايا الّتي تؤدّي بالفعل ما تصفه الأفعال، كما يطلق مصطلح "فعل الكلام (Acte locutoire) بصورة كثيفة للدّلالة على النّظريّة الّتي تحلّل دور الملفوظات في علاقتها بسلوك المتكلّم والسّامع في التّواصل المشترك، وليس فعل الكلام متعلقًا بمعنى الكلام. بل هو بالأحرى نشاط تواصلي يتحدد بمرجعية مقصد المتكلّم أثناء كلامه والآثار النّاجمة عنه عند السّامعين.[2]

3. **أقسام نظريّة الأفعال اللّغويّة عند أوستين:**

- القول في حدّ ذاته؛ أي فعل إنتاج الأصوات وتركيب الكلمات في بناء يلتزم بقواعد اللّغة ويحمل دلالة معيّنة.
- القول الفاعل؛ أي الفعل الّذي ننجزه أثناء القول ونؤكّد بالقوّة البلاغيّة.
- الفعل التّأثيري (غير المباشر)؛أي الأثر غير المباشر الّذي تحقّقه بالفعل[3].

4. **الدّور الحِجَاجِي في الأبنية اللّغويّة (الحجاج اللّساني):**

تمثّل أعمال أزوالد ديكرو وجون كلود أوسكومبر اتّجاهًا مميّزا في اللّسانيّات التّداوليّة الحديثة فقد رفضا التّصور القائم على فصل الدّلالة والتّداوليّة التّي تُعنى بالاستعمال لأنهما يعتقدان أن الأمر كلُّه منوط ببنيّة اللّغة، ذلك أن الجزء التّداولي فيها يكون مدمجا في

1 رضوان الرقبي، الاستدلال الحِجَاجِي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، المرجع السابق، ص 87. بتصرف.

2 محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحِجَاج في البلاغة المعاصرة، المرجع السابق ص 182. بتصرف

3 المرجع نفسه، ص 184.

الدّلالة.

وعليه يغدو الحِجَاج عندهما مركوز في بِنيَّة اللّغة ذاتها(خاصية كُنهية فيها)، وليس فيما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بنيّات شبه منطقيّة فالخطاب وسيلة لحجاج وغايته في آنٍ واحدٍ ، حيث يتحقق الحِجَاج عندهما حين يتقدم المتكلّم بقولٍ (ق 1) أو مجموعة أقوالٍ. تؤدي إلى التّسليم بقولٍ آخر (ق 2) أو مجموعة أقوالٍ أخرى سواء أكان (ق2) صريحًا أو ضمنيًّا . حيث يُصطلح على عمليّة قَبول (ق 2) على أنّه نتيجة للحجّة (ق1) بعمل المُحاجَّة.

قد تبدو قضية الانتقال بين الأقوال وكأنّه عمليّة استدلال، إلا أن الباحثين لا يغفلان التمييز بين عمل المُحَاجَّة وبين عملية الاستدلال فالفرق بينهما أساسه ربط المتكّلم آرائه واعتقاداته بحالة الأشياء في الكون (العالم)، أما الحِجَاج فهو عمليّة موجودة في الخطاب نفسه، فالحجاج في تصوّرهما خاصيّة لغويّة دلاليّة وليس ظاهرة مرتبطة بالاستعمال في المقام. فهو قائم في جوهر اللغة كما أنه واسع جداً فكلّ قول في منظورهما حِجاجي.

كما يتحقّق الحِجَاج في تصوّرهما من خلال تتابع الأقوال تتابعًا صريحًا أو ضمنيّا ؛ أي تتابع الحُجَّة والنتيجة، حيث لا يستند ترابط تلك الأقوال إلى قواعد الاستدلال المنطقي، بل هو ترابط حجاجي لأنّه مسجّل في أبنية اللّغة بصفته علاقات توجِّه القول وجهة دون أخرى.

من المفاهيم المهمّة كذلك في هذه النّظريّة مفهوم الاقتضاء وهو ما ينقله القول إلى المخاطب بصفة ضمنيّة. أما هدف الحِجَاج عندهما فهو التّوجيه (l'orientation)؛ ويكون بتوجيه المتلقى بالتأثير فيه، أو إقناعه أو جعله يُقدِم على عملٍ ما .

يمكن القول إنّ أعمال هذيّن الباحثيّن أعمال ذات منزع بنيوي حيث تغلق النّص أو الخطاب، إذ تحيل اللّغة ضمن هذا الدّاخل اللّغوي على ذاتها، لأنّها تعكس عمليّة قولها بحيث يكون معنى القول هو ما ينقله من وصف وتمثيل لعمليّة قول ذلك القول، و أما توسيع دائرة الحِجَاج لتشمل كل الأقوال ففيه مبالغة كبيرة لأنّ للغة وظائف أخرى لا تقل أهميّة عن الحجاج.